حركة الجهاد البحري
و نشوء الحكم العثماني في المغرب العربي

د. سمير عبد الرسول العبيدي
الجامعة المستنصرية- العراق

Abstract:

The talk about the emergence of the Ottoman rule in the Maghreb countries must address necessarily to the beginnings of Jihad Marine, a movement that emerged mainly after the fall of the Kingdom of brown red in Granada, where subsequent exposure of Muslims in Andalusia to persecution organized by the authorities, forcing them to migrate to the coasts of the Maghreb, where they asked the victory of their brothers there.

Keywords:

the emergence - Maghreb countries - the beginnings of Jihad Marine - the Maghreb.

يسعى البحث إلى دراسة بدايات حركة الجهاد البحري وعلاقتها بنشوء الحكم العثماني في بلدان المغرب العربي، والتي ارتبطت بشكل مباشر بمأساة موريسكيي الأندلس، الذين اجبروا على تغيير دينهم أو ُهجروا من ديارهم قسراً، فما كان منهم إلا أن حملوا السلاح دفاعاً عن

أنفسهم ضد عدو شرع بمهاجمة واحتلال الموانئ المغربية بقوات تفوقهم عدداً وعدةً ، وكذلك ايضاً لمساعدة إخوانهم الذين بقوا في اسبانيا متحملين ظلم ملوكها، وقد وجدوا في الدولة العثمانية ضالتهم ، بحكم انخراطها في صراع مرير ضد الممالك الأوروبية، وهو أمر ينطوي على أهمية كبرى بسبب حالة الضعف والتجزئة التي شهدها المغرب العربي، حيث كان للتدخل العثماني أهميته القصوى ، على الرغم من أن توقيته جاء متأخراً للغاية، وتحديداً لمسلمي غرناطة، في حين يتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

استهل البحث بالمبحث الأول، الذي تمثل بدراسة موجزة للصراع المرير بين حكام غرناطة والأسبان، الذي تلاحقت فصوله الأخيرة، لتنتهي بسقوط حكم المسلمين في الأندلس، وخروج آخر ملوكهم، وهذا الحدث التاريخي كان على درجة من الأهمية، دفعت ببعض المؤرخين لاعتباره يمثل بداية العصور الحديثة؛ غير أن ذلك لم يعني نهاية الصراع، بل استمر بأشكال وصيغ مختلفة، تمثل أهم ملامحها بأضطهاد الحكام الجدد للأندلسيين من مسلمين ويهود، هذا الأمر الذي اتخذ صفة منهجية عبر سياسات رسمية ذات طبيعة قانونية، فلم يبقى أمام غالبيتهم سوى النزوح إلى المغرب العربي ، حيث وجدوا العون والمدد من أشقائهم في العقيدة، ليتخذ الصراع شكلاً أكثر عنفاً، لأسباب شتى حاول المبحث التطرق إليها.

سعى الأسبان لنقل حربهم إلى سواحل المغرب العربي، واحتلال الموانيء المهمة التي تنطلق منها هجمات المجاهدين على السواحل

الأوروبية والسفن المبحرة في البحر المتوسط، فظهر تحالف بين المجاهدين والدولة العثمانية، وهو ماسعى المبحث الثاني لتبيان نتائجه، والتي كان من أبرزها، أن اتخذ الوجود العثماني في المنطقة شكلاً دائمياً، وبصيغة مختلفة عن تلك التي اتخذها في مناطق المشرق العربي.

كان لذلك الأمر تبعاته المهمة على طبيعة نشوء وتطور الحكم العثماني، ذلك ماأكده المبحث الثالث والأخير، إذ تباينت نظرة مؤرخي المغرب والمشرق العربي، في تقييمهم لطبيعة الحكم العثماني، وهو ماله أهميته البالغة بسبب وجود بعض الاختلاف، بل والتباين في الآراء في كثير من الأحيان، لتلك المرحلة التاريخية الطويلة والزاخرة بالأحداث شديدة التعقيد والأهمية، في مسيرة تطور المجتمعات العربية.

اعتمد البحث على جملة من المراجع والمصادر الأساسية، تراوحت بين الرسائل الجامعية و الكتب العربية والمعربة، إضافة إلى البحوث العلمية المنشورة، بلغ عددها (24) مصدراً، وذلك لكون البحث يناقش بالأساس مسألة ذات طبيعة فكرية، مايستدعي الإلمام بوجهات النظر المختلفة حول القضية مدار النقاش.

أولاً : نهاية الأندلس ونشأة حركة الجهاد البحري.

أ. سقوط غرناطة.

أدى انهيار الدولة الأموية في قرطبة (756 – 1031) إلى انتهاء نظام الحكم المركزي في بلاد الأندلس ، فانقسمت إلى عدة دول وأمارات متنافسة عرفت (بدويلات الطوائف) ، وبالمقابل أتحدت المناطق النصرانية وشرع حكامها بتوحيد قواهم لاستعادة البلاد تدريجياً وكان أول ما استردوه مدينة طليطلة التي أحتلها ملك قشتالة الفونسو السادس

Alfonso VI (1065–1109) عام 1085[1] ، وعقب ذلك توالى سقوط المدن الأندلسية ، وأنحصر الوجود العربي بدءاً من النصف الثاني للقرن الثالث عشر بالجزء الجنوبي من الأندلس، متمثلاً بدولة بني نصر ويعرفون ببني الأحمر (1238 – 1492) بغرناطة[2] .

منيت غرناطة بنكسات متتالية ولكنها برغم ذلك تمكنت من الاستمرار، وتمتعت بفترات طويلة من السلام والازدهار الحضاري ، ويعود ذلك إلى :

1. إن قوة العدو مكنته من اقتطاع المدن والحصون الأقرب إليه وغرناطة كانت الأبعد مكاناً والأمنع موقعاً ولا يوجد ما يمنع الأندلسيين الموريسكيين (Moriscos) من الاستعانة بأشقائهم في المغرب العربي[3] .
2. هاجر لغرناطة أعداد كبيرة من سكان المناطق المحتلة ممن رغبوا في البقاء وعدم عبور العدوة (مضيق جبل طارق) ، وزاد عددهم عن 1.5 مليون أندلسي . ولم تكن هذه القوة كافية لاستعادة الأراضي التي احتلها الأسبان، إلا أنها كانت قادرة على صد هجماتهم عبر أنشاء سلسلة من الحصون المنيعة[4] .
3. دخل حكام الممالك الأسبانية في حروب داخلية استنزفت قواهم ، فاكتفوا أغلب الأحيان بأخذ الجزية من حكام غرناطة[5] .

لقد عاش المغرب العربي حالة من التجزئة السياسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فأنقسم إلى ثلاث دول، هم بنو وطاس (1471 – 1553) في المغرب الأقصى ، وبنو حفص (1237 – 1573) في تونس وطرابلس الغرب وأجزاء من الجزائر التي اقتسموا حكمها مع بني

عبد الواد (1236 – 1554) ، وكانت هذه الدول في حالة صراع مستمر مع بعضها البعض[6] .

شهد العام 1479 بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس عقب توحيد العرش الأسباني (آراغون وقشتالة) تحت حكم إيزابيلا الاولى Isabella I (1474 – 1504) وزوجها فرديناند الثاني Ferdinand II (1479 – 1516) ، لتبدأ الحرب بين الجانبين في العام 1482 ، وخلال عقد واحد نجح الأسبان في أرغام آخر حكام بني الاحمر في غرناطة أبي عبد الله الصغير (1487 – 1492) على تسليم غرناطة بموجب المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين بتاريخ 25/ 11/ 1491 ، وتضمنت 67 بنداً وسمح بموجبها لأبي عبدالله الصغير بمغادرتها مع أسرته ، أما السكان المسلمين فنصت المعاهدة على "**تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم ، ... وإقامة شريعتهم على ما كانت ولايحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، ... ومن أراد الجواز للعدوة لايمنع، ...**"[7] .

ب. نشأة حركة الجهاد البحري.

كانت المعاهدة ملزمة وواضحة، لكن إيزابيلا بدأت باستفزاز مسلمي غرناطة ، وأبعدت من أستوطنها في مراحل قريبة من التسليم ، وبدأت تفرض عليهم التنصير أو الهجرة القسرية ، الأمر الذي أدى لانتفاضة حي البيازين عام 1499 ، وعقب إخمادها تقرر تعميد أبناء المدجنين قسراً ، وصدرت الأوامر في 20/ 1/ 1501 حرم بموجبها على المدجنين ممارسة كل ما يمت لعقيدتهم بصلة ، ومنعوا من حمل السلاح[8] .

أدى استخدام الشدة ضد المسلمين إلى قبول عدد منهم للتنصير . ولكن أعداداً كبيرة منهم اختارت الهجرة إلى المغرب العربي. وهنا بدأ الاحتكاك بين الجانبين ، أذ تعقبت السفن الأسبانية جماعات المهاجرين محاولة للإيقاع بهم . وكان الواصلون منهم سارعوا لطلب النجدة ، لذا أضحى من الطبيعي أن يخرج هؤلاء بسفنهم لحماية المهاجرين وتأمين عملية وصولهم(9)

وليست هجرة المسلمين من الأندلس بظاهرة جديدة ، فمنذ أن أخذت الدويلات الإسلامية بالانكماش ، وموجات المهاجرين تفد تباعاً ، واستقر معظمها في موانيء البحر المتوسط من الإسكندرية حتى موانيء المغرب على المحيط الأطلسي . وقد صبغ المهاجرون الحياة العلمية والأدبية في المغرب العربي بالصبغة الأندلسية المتميزة ، ولا تزال آثارها ظاهرة في الحياة الاجتماعية والعمرانية إلى يومنا هذا . وقد ضمت هذه الهجرات اليهود والذين عانوا كذلك من الاضطهاد . وهذا ما يفسر لنا وجود أعداد كبيرة من الجاليات اليهودية ، واحتفاظ بعضها بلغتها الأسبانية خاصة في مراكش . وقد أشتهر الأندلسيون أيضاً بالتفوق في النشاط الاقتصادي حتى أنهم سيطروا على تجارة المنطقة(10) .

أدت هذه التطورات إلى ظهور الحاجة لقيادات جديدة في الميدان . وإذا كانت الدويلات الإسلامية قد عاشت في ضعفها وانقسامها فإن الحاجة قد ظهرت إلى ضرورة توحيد القوى . وإذا كانت القيادات التقليدية تمرست في الحروب البرية ، فإن طبيعة المرحلة استلزمت وجود رؤساء بحريين يمكنهم منازلة الأعداء والدفاع عن السواحل . وعليه فأن تاريخ الفترة التالية للشمال الأفريقي يمكن تلخيصها في نشأة هذه القيادة

البحرية وجهادها ضد القوى الأوروبية، وعلاقتها بالقوى المحلية الموجودة في ذلك الوقت[11] .

تبنى المسلمون استراتيجية عسكرية تقوم على شن هجمات خاطفة على السفن والموانيء الأسبانية ، وخاصة تلك الواقعة في مناطق الجنوب ، ويعود سبب ذلك إلى التباين الشاسع في الإمكانيات بين الجانبين، ناهيك عن عدم وجود قيادة موحدة تعمل على وضع الخطط اللازمة لذلك ، الأمر الذي يجعل الدخول في مواجهة مباشرة مع البحرية الأسبانية مغامرةً غير مأمونة العواقب ، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية جدواها ونجح المجاهدون بإلحاق خسائر كبيرة بسفن الأعداء ، ساعدهم في ذلك جملة من العوامل منها كون أسبانيا دولة بحرية تعتمد أساساً على السفن لتوفير احتياجاتها ، إضافة إلى طول شريطها الساحلي والذي لم يكن يفصله عن المغرب العربي إلا مسافة بسيطة لم تكن تتجاوز 14 كم عند أقرب نقطة في مضيق جبل طارق[12] .

أطلقت غالبية المصادر الأوروبية على هجمات المجاهدين تسمية (القرصنة) ، وتبعهم في هذا بعض الكُتاب العرب ؛ وهنا لابد من التمييز بين (القراصنة) وبين الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية ، والتي كانت الغاية منها ضرب اقتصادات العدو ، بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة إليه ، وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية ، وهذه العمليات ذات نظم ، وقوانين وكما ورد في دائرة المعارف الفرنسية(Eros) Encyclopédie française **(كانت الحكومات فيما سلف تسلم أوراقاً رسمية للقراصنة ، فتكسبهم بذلك صبغة مشروعة ، تميزهم عن لصوص البحر ، وتجعلهم شبه جنود متطوعين يعملون في أوقات الحروب ، بعكس اللصوص الذين يمارسون مهنتهم باستمرار ،**

وقد سلحت فرنسا عدداً كبيراً من القراصنة ، وعلى سبيل المثال فللمدة (1793 – 1815) ، ضبط القراصنة الفرنسيون 10871 سفينة تجارية إنكليزية ، منها 949 في سنة واحدة ، هي سنة 1797)[13] .

ثانياً : بدايات الحكم العثماني.

أ. الأسباب والمعطيات.

لم تبسط الدولة العثمانية نفوذها في المغرب العربي باديء ذي بدء بواسطة غزو عسكري ، كما حدث في مصر مثلاً[14] ، بل جاء نتيجة لاشتداد الصراع بين الأوروبيين والعرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر . وقد أجتذب ذلك أعداداً كبيرة من البحارة المغامرين ، الذين نشؤا في خدمة أسطول الدولة العثمانية ، ثم أخذوا يعملون بأساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص فتظفر بالغنائم الوفيرة وتحارب أعداء الدولة في الوقت نفسه . ولذا فقد كان هؤلاء يعتبرون بنظر المسلمين أبطالاً وطنيين وفي نظر خصومهم (لصوص بحار ، لايخضعون لأي قانون أو نظام)[15] .

وفي الواقع أن التدخل العثماني في المغرب العربي لم يكن متوقعاً أبداً ، أو في حسبان أحد بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها . فمنذ أوائل القرن السادس عشر توزعت اهتماماتها في اتجاهات متعددة : في أوروبا وبلاد فارس، أما في العالم العربي فكانت تسعى بجهد حثيث للقضاء على الدولة المملوكية ووراثة أملاكها وكانت دولة برية لعب الجيش الدور الحاسم في فتوحاتها ، ولم يكن للأسطول العثماني أي دور بارز في هذه الفتوحات ، سواء في أوروبا أو آسيا . وفي حين اتسعت فتوحات العثمانيين البرية فإن تقدمهم في المجال البحري كان بطيئاً ، وإذا كانت فتوحاتهم العربية قد منحتهم مواقع بحرية هامة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فإن ممتلكاتهم البحرية اقتصرت حتى أوائل القرن السادس عشر على عدد من جزر الأرخبيل القليلة الأهمية ، في حين ظلت الجزر الهامة كرودس ومالطا وكريت وقبرص بعيدة عن متناولهم[16] .

وعلى هذا لم تورد المصادر سوى إشارات مقتضبة عن الموضوع . فخلال شهر آب 1454 ، نجد في مدينة نابولي شخصين من البلاط الحفصي ، قد أطلق سراحهما منذ مدة قصيرة بأمر من ملك أراغون الفونسو الخامس **Alfonso V** (1416–1458)، وكان قد ألقي القبض عليهما على متن سفينتهما في ميناء سرقسطة ، بينما كانا متوجهين للقيام بمهمة لدى السلطان العثماني محمد الفاتح (1451 – 1481) . والغالب أن السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (1435 – 1488) كان يود ان يوجه بواسطتهما تهانيه بمناسبة فتح القسطنطينية[17] .

ب. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيون.

لقد أجمع المؤرخون على أن الجيش العثماني وطيلة قرنين على الأقل كان أفضل جيش في العالم . وكانت الإمبراطورية العثمانية جيشاً قبل أن تكون دولة ، وقد كتب الموفدون الأوروبيون روايات مسهبة عن مدى الانضباط والالتزام الذي ميز الجندي العثماني ، إذ كان يجمع كل الخصال التي تجعل من الجيوش ظافرة لاتقهر ، وهذه الخصال هي" الطاعة ، والشجاعة والوفاء ، إلى حد التعصب" ، في حين كانت الجيوش الأوروبية لا تطيع إلا بحسب ما تمليه الساعة وتنكس على أعقابها هاربة ، في أول فرصة ، وقد ذكر الإخباري الإيطالي (باولوجيفيو(Paulo Geevio في عام 1531) **أن الانضباط في الجيش العثماني وصل درجة من الأنصاف والشدة يفوق ما عرفه قدماء اليونان والرومان ... ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أنه في العصر الذي كانت فيه أوربا لم تعرف إلا قليلاً عبارة تزويد فإن إدارة صاحب الجلالة كانت منظمة تنظيماً محكماً..."**[18] .

ولكن برغم ما تقدم فقد امتنع العثمانيون من التدخل ونجدة غرناطة التي أرسل سكانها وفد إلى محمد الفاتح في عام 1477 طالبين منه

مساعدتهم من دون جدوى ، وقد أدى هذا الموقف السلبي إلى التعجيل بسقوط غرناطة ونقل الأسبان حروبهم لموانئ المغرب العربي[19] .

بدأ الاهتمام العثماني المباشر بالمنطقة في عهد السلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512) ومن هنا يمكننا تحديد مرحلتين ، مرحلة أساليب الغزو والحكم غير المباشرين (1481 – 1519) ومرحلة أساليب الغزو والحكم المباشرين . ومن أساليب تنفيذ المرحلة الأولى والتي يمكن ان نسميها (بمرحلة التأسيس) التفاهم والاتفاق والتحالف مع القوى السياسية والقبلية المحلية، ومن معالمها تقديم الهدايا وأنصبة الغنائم للسلطان والدعاء بأسمه في خطبة الجمعة والقبول بقوات عثمانية كحامية أو كفرقة بين الفرق المحلية[20] .

وبحلول عام 1487 وجه سكان غرناطة نداءاً بطلب المساعدة إلى البلاطين المملوكي والعثماني . ورغب بايزيد الثاني بالحصول على مزيد من المعلومات عن الوضع الميداني، فاستدعى القبطان كمال ريس وزوده بعدد من السفن ليقلع نحو غرناطة ، وهناك حدث أول اتصال مباشر بين الطرفين ، ولم تكن لهذه البعثة تأثير يذكر على مصير غرناطة ، إلا أنها سمحت للبحارة العثمانيين بإقامة قواعد لهم في موانئ المغرب العربي ، حيث استقبلوا بالترحاب ، وقد أقام كمال ريس قاعدته في جزيرة جربه التونسية ثم في مينائي بونه وعنابة الجزائريين . وواصل نشاطاته حتى عام 1495 حينما تم استدعائه لاسطنبول . وقد سمح ذلك للعثمانيين بالحصول على المعلومات والمساندة في الوقت الذي كان فيه أسطولهم مشتبكاً مع البندقية (1499 – 1503) . ومع انتهاء الحرب هاجرت مجموعة جديدة من ملاحي شرقي البحر المتوسط إلى نفس الموانئ التي كان يتمركز فيها كمال ريس[21] .

شكل الموريسكيون عماد هذه الحركة الجديدة بحكم حجم الظلم والحيف الذي لحق بهم . وكان هؤلاء أكثر الحلفاء وفاءً ومدعاة للثقة عند الباب العالي في غرب العالم الإسلامي . إذ رأوا في العثمانيين حاميهم الوحيد من ظلم الحكام الإقطاعيين المحليين وقبائل البدو . وتحول بعض القادة البحريين العثمانيين إلى أبطال شعبيين حقيقيين وأحيطوا بهالة رومانسية كمناضلين بواسل ومدافعين عن (الشريعة الحقة) . فكانوا يستقبلون بحفاوة في المواني‌ء التي يقصدونها حيث اعتادوا تمضية فصل الشتاء ليصلحوا سفنهم ويبيعوا غنائمهم ويعوضوا خسائرهم البشرية لإكمال أطقم سفنهم . وكان قباطنة السفن أو كما يسميهم المغاربة "الرياس"، يدفعون عادة إلى الحكام المحليين (خُمس) غنائمهم ، وأحيانا يوزعونها على الفقراء والدراويش ورجال الدين الذين ساندوا البحارة وأقاموا الصلوات على نيتهم ، علاوة على مختلف احتفالات الترحيب بهم[22] .

لم يقتصر التحالف العثماني – الموريسكي على مواني الشمال الأفريقي ، بل تدفقت أعداد كبيرة منهم على اسطنبول بحكم كون الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية وتمتعت بسمعة متميزة نظراً لنجاحها في فتح القسطنطينية والانتصارات التي حققتها في أوروبا الشرقية وأخيراً حيازة السلطان العثماني لقب (حامي الحرمين الشريفين) بدءاً من عام 1517 ، ومن الملفت للنظر ان قدوم المورسيكيين لم يقتصر على المسلمين بل أمتد ليشمل اليهود الذين عانوا هم أيضاً من اضطهاد السلطات الأسبانية ، وقد أزداد عددهم بسرعة وأصبحوا حريصين على أحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بقضيتهم ، وزيادة على ذلك فقد امتهن عدد كبير منهم الترجمة والمراسلات لصالح الباب

العالي ، ولعل هذا ما دفع ببعض القناصل الأوروبيين لتعقب نشاطاتهم ومن ثم(اتهامهم بالتجسس) [23] .

ثالثاً : الموقف من مرحلة الحكم العثماني.

إن الطريقة التي نشأ بها الحكم العثماني في المغرب العربي تفسر لنا النظرة الحالية للمغاربة تجاه هذه المرحلة المهمة من تاريخ بلدانهم ، وهي تقوم على الشكر والعرفان نظراً لأن الدولة العثمانية لم تمد نفوذها إلى مناطق المغرب العربي بواسطة غزو عسكري أو تدخل مباشر منها كما حدث مثلاً في بلاد الشام والعراق ، وإنما كان ذلك **(نتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في حوض البحر المتوسط في القرن الخامس عشر ... فلولا ذلك لتكررت مأساة الأندلس ، ولاصبحت المدن الساحلية كلها مدناً أسبانية بحتة كمليلة وسبتة...)**[24] .

ولكن برغم هذه النظرة غير الواقعية إلى مرحلة الحكم العثماني إذا جاز لنا التعبير، والتي اسماها المؤرخ الروسي نيقولاي ايفانوف (**1886-1970**) (الحنين إلى العثمانيين) [25]، والتي أنفرد بها المغاربة من بين شعوب البلدان التي احتلها العثمانيون فإن لها ما يبررها من وجهة نظرهم الخاصة ، وهذا يقودنا للحديث عن الأثر الذي تركوه خصوصاً وأنهم احتلوا جميع مناطق الوطن العربي (باستثناء مراكش) ولعدة قرون.

أن صفات العثمانيين كانت مسؤولة إلى حد كبير عن إخفاقاتهم ، فقد انعزل العثمانيون اجتماعياً، ولم يحدث انصهار أو امتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة، كما لم يسهموا بشيء يذكر في الحياة الاقتصادية ، واكتفوا بأن أقاموا كطبقة حاكمة ، وكانوا أقلية عددية تميزت بالاستعلاء ، ولم يحاولوا نشر لغتهم ، فبقيت الشعوب محافظة على لغتها وثقافتها وعاداتها وغير ذلك من عناصر حضارتها، وكانت سلبية العثمانيين من

أهم عوامل الحفاظ على القومية العربية ، ويعزو بعض المؤرخين سبب ذلك إلى أنه لم يكن لهم تراث فكري يلقنونه للآخرين كما هو حال اليونان أو العرب من قبلهم ، إذ اكتسبوا عظمتهم من ساحات القتال ، وهكذا عجز العثمانيون عن ان يثبتوا جذورهم . فلما زالت دولتهم لم تترك تأثيرات تذكر، إلا فيما ندر، باستثناء بعض المنشئات العسكرية والمباني الحكومية، ومضت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب والبلدان في مسارها العادي من دون ان تشعر بقدوم أو زوال الحكم العثماني(26).

الخاتمة.

بدأ الاهتمام العثماني المباشر بالمنطقة العربية في عهد السلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512) ، ومن هنا يمكننا تحديد مرحلتين ، مرحلة الغزو والحكم غير المباشرين (1481 – 1519) السلمية، ومرحلة الغزو والحكم المباشرين، وهي المرحلة العسكرية . ومن أساليب تنفيذ المرحلة الأولى، والتي يمكن أن نسميها (بمرحلة التأسيس) التفاهم والاتفاق والتحالف مع القوى السياسية والقبلية المحلية ومن معالمها تقديم الهدايا وأنصبة الغنائم للسلطان والدعاء بأسمه في خطبة الجمعة، والقبول بقوات عثمانية كحامية أو كفرقة بين الفرق المحلية .

كان هذا التحول يعود بالأساس لاعتبارات تتعلق بأولويات السياسة العثمانية التي اتخذت منحى جديد في عهد السلطان سليم الأول(1512–1520)، وقد أخذ الأمر طابعاً روحياً في كثير من الحالات بحكم طبيعة الصراع ، وهو مايفسر لنا بشكل كبير النظرة الحالية لسكان بلدان المغرب العربي إلى تلك المرحلة المهمة من تاريخهم ، بغض النظر عن الكثير مما جناه العثمانيون من هذا التحالف، حيث سيطروا بصورة سلمية على مساحات شاسعة أضافوها لإمبراطوريتهم المترامية الأطراف، ومقارنة ذلك بما خلفوه من تركة حضارية متواضعة، رغم مدة حكمهم الطويلة، ولأسباب محددة . وهو ماشكل ُصلب مادة البحث التي ركزت على البدايات الأولى لحركة الجهاد البحري، ثم المرحلة السلمية لتأسيس الحكم العثماني في المغرب العربي، أي مرحلة التحالف، والتي انفردت بخصائص تميزها عن المرحلة اللاحقة ذات الطابع العسكري.

لقد شكل الموريسكيون(المغاربة)، وهي تسمية ذات (صفة قدحية❊) مشتقة من الكلمة الاسبانية **Marruecos**(المغرب)، وقد أُطلقت

على المسلمين في الأندلس الذين تم تعميدهم قسرًا بمقتضى المرسوم الصادر من السلطات الاسبانية في 14/ 2 / 1504؛ عماد هذه الحركة الجهادية الجديدة بحكم حجم الظلم والحيف التاريخيين الذي لحق بهم من قبل الحكام الأسبان، الذين شرعوا في حروب طويلة ضد الوجود العربي الإسلامي في اسبانيا استمرت لعدة قرون، ولم تنتهي إلا بسقوط آخر معاقلهم في غرناطة العام 1492 . لذا كان هؤلاء أكثر الحلفاء وفاءً ومدعاة للثقة عند الباب العالي في غرب العالم الإسلامي.

لهذا لم تبسط الدولة العثمانية نفوذها في المغرب العربي في البداية بالغزو العسكري ، كما حدث في مصر مثلاً ، بل جاء نتيجة لاشتداد الصراع بين الأوروبيين والعرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر . وقد أجتذب ذلك أعداداً كبيرة من البحارة المغامرين ، الذين نشأوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية ، ثم أخذوا يعملون بأساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص فتظفر بالغنائم الوفيرة وتحارب أعداء الدولة في الوقت نفسه . فقد كان هؤلاء يعتبرون بنظر المسلمين أبطالاً وطنيين وفي نظر خصومهم (قراصنة)، لا يخضعون لأي قانون أو نظام .

نجح العثمانيون بفرض سلطتهم على الوطن العربي (باستثناء مراكش) للمدة (1516 – 1918)، لكنهم انعزلوا اجتماعياً، ولم يحدث انصهار أو امتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة، كما لم يسهموا بشيء يذكر في الحياة الاقتصادية ، واكتفوا بأن أقاموا كطبقة حاكمة ، وكانوا أقلية عددية تميزت بالاستعلاء ، ولم يحاولوا نشر لغتهم ، فبقيت الشعوب محافظة على لغتها وثقافتها وعاداتها وغير ذلك من عناصر حضارتها، وكانت سلبية العثمانيين من أهم عوامل الحفاظ على القومية العربية ،

ويعزو بعض المؤرخين سبب ذلك إلى أنه لم يكن لهم تراث فكري يلقنونه للآخرين كما هو حال اليونان أو العرب من قبلهم ، إذ اكتسبوا عظمتهم من ساحات القتال ، وهكذا عجز العثمانيون عن أن يثبتوا جذورهم . فلما زالت دولتهم لم تترك تأثيرات تذكر ، ومضت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب والبلدان في مسارها العادي من دون أن تشعر بقدوم أو زوال الحكم العثماني.

لقد برز تباين بآراء المؤرخين المغاربة والمشارقة حول طبيعة الحكم العثماني، ويعود ذلك لجملة نقاط نوجزها بالاتي :-

1. ارتبط المغرب العربي بصلات وثيقة مع بلدان أوربا بحكم الموقع الجغرافي ، مع الإشارة إلى أنها لم تكن ودية في جميع الأزمنة وإنما شهدت حالات مد وجزر كثيرةً .
2. كان سكان المغرب العربي في مجملهم من المسلمين مع وجود أقليات يهودية، أما النصارى فهم من الأوربيين حصراً ، لذا ارتبطت الديانة المسيحية في ذهن المواطن العادي بأوربا ، فتكررت هذه المفردة باستمرار لدى المؤرخين المغاربة .
3. عانى المغرب العربي من الصراع في الأندلس ، بل لقد انهارت دولتا المرابطين (1056–1147) والموحدين (1130–1269) من جراء اخفاقاتهما في الأندلس ، مع العلم ان الكنيسة الكاثوليكية قدمت دعماً لامحدوداً للقوى المحلية في صراعها ضد الممالك الإسلامية مما أكسب الصراع صيغة مسيحية –إسلامية .
4. دأب العثمانيون للحفاظ على بعض المظاهر الإسلامية كالألقاب والمناسبات الدينية والشواهد العمرانية ، وحرصوا على أبراز ذلك التوجه الديني مما أكسبهم قاعدة شعبية واسعة من دون أية تبعات

سياسية أو عسكرية إلا فيما ندر ، وساعدهم في ذلك انتشار الطرق والزوايا الصوفية في المغرب العربي التي قدمت دعمها الواسع لحركة الجهاد البحري، كما تبنى العثمانيون طريقة صوفية محلية تدعى "الطريقة البكتاشية" .

5. لقد بقي العثمانيون أقلية اوتوقراطية منعزلة ولم يحاولوا فرض نمط حياتهم على أبناء المغرب العربي ، مع الإشارة إلى ان العثمانيين فقدوا جميع مواقعهم في المنطقة خلال المدة (1830 – 1911) ، أي أن هذه المناطق شهدت مجيء الاستعمار الأوربي في مرحلة تاريخية مبكرة ، والذي كان أشد وطأة وبخاصة مع سعي المستعمرين الجدد لفرض قيم وطروحات جديدة .

6. لم يعاني المغرب العربي من سياسة "التتريك" ، التي حاول العثمانيون تطبيقها في مناطق المشرق العربي حصراً ، والسبب أنهم فقدوا سيطرتهم كلياً على بعض المناطق (الجزائر وتونس) ، أو بصورة جزئية (مصر وطرابلس الغرب) .

الإحالات:

1. إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، 1312هـ ، ص261 .
2. د. محمد كمال شبانه ، يوسف الأول أبن الأحمر سلطان غرناطة ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ص19 – 23 .للتفاصيل عن حكم بني الاحمر في غرناطة ينظر:عباس جبير طعمة التميمي، نظم الحكم والإدارة في الأندلس، عصر بني الأحمر (635-897ه)، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية، جامعة بغداد، تموز 1994.
3. د. عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (711 – 1492م) ، ط1 ، دمشق – بيروت ، دار القلم ، 1976 ، ص521 .
4. عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة ، ط1 ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2000 ، ص115 – 116 .

5. بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، بيروت ، دار الجيل ، **1980** ، ص**128** .
6. د.عبد الله شريط ، محمد مبارك الميلي ، مختصر تاريخ الجزائر ، ط**2** ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، **1985** ، ص**115** .
7. د.محمد عبده حتاملة ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (**1474 – 1516**) ، الأردن ، **1980** ، ص**19 – 55** .
8. عادل سعيد بشتاوي ، المصدر السابق ، ص**127 – 131** .للتفاصيل عن حكم إيزابيلا وفرديناند ينظر: Jean Hippoly Mariejol, The Spain Of Ferdinand And Isabella, Translated By Benjamin Keen, New Brunswickد.جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ج**3** ، بيروت ، دار النهضة العربية ، **1981** ، ص**19** .
9. د. صلاح العقاد ، المغرب في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، **1963** ، ص**33** .
10. د.جلال يحيى ، المصدر السابق ، ص**19 – 20** .
11. أندروهيس ، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ط**1** ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، **1986** ، ص**32 – 35** .
12. أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا **1492 – 1792** ، الجزائر ، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ، بلا ، ص**72 – 73** .
13. نجح السلطان سليم الأول (**1512 – 1520**) من الإطاحة بدولة المماليك البرجية (**1382 – 1517**) عقب حرب خاطفة استمرت للمدة (**1516 – 1517**) . للتفاصيل ينظر : د.علي محمد محمد الصلابي ، الدولة العثمانية ، ط**1** ، المنصورة ، مكتبة الأيمان ، د.ت ، ص**179 – 184** .
14. د.صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص**36** .
15. د.محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، ط**1** ، **1969** ، ص**12** .
16. روبار برنشفيك ، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن **13** إلى نهاية القرن **15**، ج**1** – ج**2** ، ترجمة حمادي الساحلي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، **1988** ، ص**292** .

17. أندري كلو ، سليمان القانوني، ط1، ترجمة البشير بن سلامة ، بيروت ، دار الجيل ، 1991 ، ص45 – 46 .

18. د.عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد3 ، يناير 1975 ، ص38 .

19. د.إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 986هـ ، 1578م ، ط1 ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص72 .

20. أندروهيس ، المصدر السابق ، ص96 – 97 .

21. نيقولاي أيفانوف ، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 – 1574 ، ط2، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، بيروت، دار الفارابي، 2004 ، ص117.

22. د.عبد الجليل التميمي ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ، المجلة التاريخية المغربية، تونس ، العدد 23 – 24 ، نوفمبر 1981 ، ص191 – 192 .

23. د.محمود أحسان الهندي ، الحوليات الجزائرية ، دمشق ، 1977 ، ص38 .

24. للتفاصيل ينظر: نيقولاي أيفانوف، المصدر السابق ، ص61–68.

25. د.عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج1 ، مصر ، دار المعارف ، 1969 ، ص547 – 550 .للتفاصيل عن خصائص الحكم العثماني ينظر: أ.د.زين العابدين شمس الدين نجم(جامعة الازهر)؛ تاريخ الدولة العثمانية، ط1، عمان، دار المسيرة، 2010، ص251– 266